العربية الفصحى بين لهجاتها وعامياتها المختلفة *

للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

أيها العلماء الأجلاء :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد،

فقد تلقيت ، في بداية الشهر المنصرم شباط (فبراير) ، دعة كريمة من الرئيس الجليل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع، للمشاركة في مؤتمر مجمعنا القاهري، الذي نعتزُّ بالانتساب إليه. وأحمل في نفسي عظيم الاحترام والتقدير لرئيسه العلامة، الذي أغنى الخزانة العربية بمصنفاته المشهورة، فى خدمة العربية وتراثها الأدبي والعربي . وقد أعلمني أن الموضوع الرئيسي لمؤتمر هذا العام هو: (الفصحى والعامية) وحددت الدعوة إعداد بحث في هذا الموضوع المقترح ــ يتناول العامية في بلدكم وعلاقتها بالفصحى من حيث التأثير والتأثر .

وقد توقفت مليًّا عند هذا الموضوع المقترح في محوره العام " الفصحى والعامية"، ووجدت أن النهج العلمي، يقتضي أن تحدد المفاهيم التي يدور حولها البحث والحوار فإنَّ عدم وضوح المفاهيم، يؤدي إلى الفرقة والاختلاف ... ونحن عندما نتحدث عن"الفصحى" إنما نتحدث عن العربية، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، اللغة الجامعة لتراث أمتنا العربية على امتدادها الجغرافي من أقصى المغرب العربي إلى أقصى مشرقه، وفي عمقها التاريخي عبر القرون ، منذ العصر الجاهلى ونزول القرآن الكريم وحيًا على قلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بلسان عربي مبين، حتى وقتنا الحاضر ...

*ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الخميس ٢٣من ذي القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١١ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م.

بل وحتى تزول الأرض ومن عليها.

فقد حفظ القرآن الكريم اللغة العربية ، وجعلها لغة خالدة بخلود النص القرآني؛ فالعربية الفصحى، ثابتة من حيث نحوها وصرفها ، ومن حيث قواعد نظمها ومن حيث قواعد لفظها، وهى لغة نامية ومتطورة من حيث ألفاظها ودلالاتها، وأساليبها ... ومصطلحاتها... لاستيعاب كل ما هو جديد ....

أما اللهجات ، فهي ألوان من النطق ، في مختلف الأقطار العربية ، بين مدنها وقبائلها وتذهب جذورها بعيدة في أعماق التاريخ . وهي لاتتعدى في معظمها ، اللهجات العربية القديمة التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، في إطار العربية الفصحى وفى ما كان يسمى"لغة و"لغيّة"... وإن اختلاف هذه اللهجات لا يتناقض مطلقًا مع وحدة اللغة وسلامتها وفصاحتها... فالإمالة مثلاً، ونطق الكاف قافًا أو همزة... إلخ ، ولفظ الجيم جيمًا جامدة، أو معطشة، أو شامية ... كل هذا ومثله يضفي على لغة التخاطب ، أي اللغة المحكية، رونقا محببًا للنفس ، ولا يتناقض مع وحدة اللغة التي تتجسد في هذه العربية السليمة أو الفصحى ، في الكتابة والخطابة والحوار والمناظرة والمسرحيات والروايات والأحاديث في وسائل الاتصالات السمعية والمرئية ...ولا أعتقد أن هناك عاقلاً يقول بأن الوحدة اللغوية تقضي بفرض لهجة معينة على جميع الأقطار، وإزالة اللهجات الأخرى .

أما العامية ، أيها العلماء الأجلاء، فقد انحرفت عن العربية الفصحى، واتخذت طوابع الأقطار المختلفة ، ويبتعد مسارها عن ثوابت الفصحى كلما غاصت الأمة العربية في الجهل والتخلف ... فنشأت لغات عامية في جميع الأقطار العربية ، وأصبح لكل منطقة أو مدينة عاميتها... ومن الواجب أن نفرق عندما نتحدث عن

العامية ، بين المفردات والألفاظ التي يعبر بها عامة الناس عما يستخدمونه من أدوات حياتهم اليومية وآلاتها ومستلزماتها، مهما كانت أصولها، وبين العامية في تراكيبها بنحوها وصرفها ومفاهيمها الجلفة وفكرها الضيق ، وتعابيرها البدائية.

وإن إنشاء المجامع اللغوية العربية، قد جاء منذ بداية القرن العشرين ، للمحافظة على سلامة اللغة العربية، وليس لنا لغة عربية سوى اللغة الفصحى لغة العروبة والإسلام ، بثوابتها الأصيلة ، في قواعد نظمها ولفظها .

وربما كان من المفيد فى هذه الكلمة أن نستعرض قضية الحرص على سلامة اللغة التي رعتها المجامع اللغوية العربية ، ونصت عليها جميع قوانينها .

فقد أصدر رئيس المجمع العلمي العزبي بدمشق منشوراً في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٩م باللغتين العربية والفرنسية ، وأرسله للمجلات والمجامع في الشرق والغرب... وقد حدَّد أغراض المجمع . وكان الغرض الأول :

١-النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينفعها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط جديد(*) .

وقد تبنى المجمع العلمي العربي، منذ إنشائه نشر اللغة الفصحى، كتابة وإنشاءً ونطقًا ومحاورةً .

وفي عام ١٩٢٨م، وعلى الرغم من الاحتلال الأجنبي، صدر القرار رقم ١٣٥ بتاريخ ٨أيار، وقد جاء في المادة الأولى: "المجمع العلمي العربي جمعية علماء غايتها ومهمتها حفظ اللغة العربية وترقيتها

(*) انظر : تاريخ المجمع العلمي ، أحمد الشيخ ، ص٩ ، دمشق ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.

وفي المرسوم التشريعي رقم (٩٠)، الصادر في دمشق بتاريخ ٢١شعبان سنة ١٣٦٦هـ و٣٠ حزيران سنة ١٩٤٧م، نصت المادة الثانية عن "غاية المجمع العلمي العربي" ... على الوجه الآتي : "-ب: البحث في علوم اللغة العربية، والحرص على سلامتها وجعلها تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة " .

وجاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي أنشئ سنة ١٩٣٢م، وفي جميع التعديلات التي حدثت ، ليؤكد الأهداف الأساسية التي أنشئ من أجلها هذا المجمع ، مثال ذلك،ما نصت عليه المادة الثانية من قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة رقم (١١٤٤) سنة ١٩٦٠م، تحت عنوان: أغراض المجمع ووسائله :

أولاً – الأغراض :

أ-المحافظة على سلامة اللغة العربية والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون في تقدمها وملاءمتها لحاجات الحياة في العصر الحديث .

ب-توحيد المصطلحات في اللغة العربية.

وعندما تحدث هذا القرار عن الوسائل ذكر ما نصه :

– الدراسة العلمية للهجات العربية الحديثة في الأقطار المختلفة ، وللكلمات والأعلام العربية في اللغات الأجنبية ، وذلك لخدمة الفصحى والبحث العلمي .

وإنه لمن الواضح أن هناك فرقًا بعيدًا بين مفهوم اللهجات العربية الحديثة وبين مفهوم العاميات في الأقطار العربية في العصر الحديث .

وجاء – في قانون رقم ١٤ سنة ١٩٨٢م، الذي صدر برئاسة الجمهورية في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٤٠٢هـ (٩ مارس سنة ١٩٨٢م) في المادة (٢) – ما نصه :

مادة (٢) -أغراض المجمع هي :

أ -المحافظة على سلامة اللغة

العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والآداب والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة.

د- دراسة اللهجات العربية قديمها وحديثها دراسة علمية لخدمة الفصحى والبحث العلمي.

ز- توصية الجهات المختصة باتخاذ ما يكفل الانتفاع بما ينتهي إليه المجمع لخدمة سلامة اللغة، وتيسير تعميمها وانتشارها وتوحيد ما فيها من مصطلحات . وكان الحفاظ على سلامة اللغة العربية، ومازال، محور قوانين المجامع اللغوية العربية. ففي قانون المجمع العلمي العراقي رقم (٦٤) سنة ١٩٧٧م، جاءت المواد الأولى على الوجه التالي :

المادة الأولى - تلتزم الوزارات وما يتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والمؤسسات والمصالح والشركات العامة وكذلك الجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية، واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها؛ وذلك بجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية .

المادة الثانية - على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم ، وعليها أن تحرص على سلامتها، لفظًا وكتابة ، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها ، وإدراك مزاياها والاعتزاز بها .

وجاءت المادة الثالثة – لتؤكد الاتجاه نفسه. وهي تنصُّ صراحة على عدم جواز استعمال العامية .

ومما يستحق الوقوف عنده ما جاء من الأسباب الموجبة لوضع هذا القانون. وهذا نصُّه :

"ولما كانت غلبة العامية على العربية الفصيحة أثرًا من آثار التخلف والجهل، وسمة من سمات الأمية، وعاملاً من عوامل الفرقة والتجزئة ، ومعوقًا من معوقات انتشار التعليم، ويقظة الوعي القومي والجهود المنظمة

نحو ثقافة الجماهير... (*) ".

وحذا مجمع اللغة العربية الأردني حذو المجامع الشقيقة منذ تأسيسه سنة ١٩٧٦م، فقد جاءت المادة(٤) من قانون مجمع اللغة العربية الأردني على النحو الآتي :

يعمل المجمع على تحقيق الأهداف التالية :

أ-الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها تواكب متطلبات الآداب والعلوم والفنون الحديثة.

ب-توحيد مصطلحات العلوم والآداب والفنون، ووضع المعاجم والمشاركة في ذلك بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم والمؤسسات العلمية والثقافية داخل المملكة وخارجها .

جـ-إحياء التراث العربي والإسلامي في اللغة والعلوم والآداب والفنون .

ونحن نرى في هذه الكلمة العجلى، كيف أن جميع المجامع اللغوية العربية تجمع على المحافظة على سلامة اللغة العربية ... وعندما نتحدث عن سلامة اللغة العربية ، لا نتحدث عن تيار المجابهة بين العامية، بل العاميات أمام اللغة العربية الفصحى. وإنه لما يثير في نفوسنا الحزن والأسى، أن نجد تشجيع العاميات يستشري في جميع الأقطار العربية ، لاسيما في معظم برامج التلفاز والإذاعة المسموعة، من خلال التمثيليات والمسلسلات والروايات والأحاديث، وإن الدَّارس للسياسات غير المعلنة، في دعم العاميات والنَّيل من اللغة الفصحى في الأقطار العربية يهوله الأمر، ويرى، دون أن نظلم أحدًا، أنها سياسات تصب في اتجاه الفرقة والتمزق ، بل وباتجاه التأخر والتبعية الأجنبية. وقد بلغ الحدُّ إلى إصدار المجلات والنشرات باللغة العامية في بعض الأقطار العربية .

وإنني في هذه الكلمة ، لا أقصد

(*) انظر : قانون رقم (٦٤) سنة ١٩٧٧م، قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية .

الحظر على دراسة أي موضوع من الموضوعات اللغوية أو غيرها ، فالدراسات العلمية يرحب بها في كل مجال ، وحرية الفكر والرأي ركيزة تقدم الأمم ونهضتها ...ولكني أردت أن أبين وجوب تحديد مفاهيم قضايا تمس أمتنا العربية في هويتها وفي جوهر وجودها. فمن الواجب أن نفرق في أحاديثنا بين اللغة الفصحى والفصيحة أو السليمة، وبين اللهجات ، والعاميات ... وأن نفرق بين اللغة المكتوبة، واللغة المحكية أو لغة التخاطب ... فاللغة المحكية لا تعني بالضرورة اللغة العامية... وهي تختلف عن اللغة المكتوبة في جميع اللغات ولا أستثني لغة من اللغات ...

وخلاصة القول ، فالعاميات العربية أثر من آثار التخلف والجهل ، وسمة من سمات الأمية وعامل من عوامل الفرقة والتجزئة، ومعوق من معوقات انتشار التعليم ويقظة الوعي الوطني والقومي. وأن هذه العاميات تحمل فكرًا محدودًا ومفاهيم جلفة ، لا يتذوقها إلا جماعة محدودة من الناس. ولا أعدو الصواب إذا قلت : إن السبيل الوحيد لمعالجة هذه القضية اللغوية الخطيرة ، يتمثل بانتشار التعليم الذي يقوم على سياسة لغوية سليمة ، تجعل من معلّم كل مادة ، معلم لغة، يقدمها سليمة لطلابه، بأسلوب يحبِّب لغتهم إليهم ويثير في نفوسهم الحب والاعتزاز بهذه اللغة الخالدة . وأن يشمل التعليم جميع شرائح المجتمع في كل قطر عربي... وأن تكون العربية الفصيحة لغة جميع مؤسسات الدولة ولغة المؤسسات التجارية والصناعية وجميع مرافق الحياة .

والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الكريم خليفة

عضو المجمع من الأردن